

هو العليم

بر الوالدين بين المادية والإسلام

آية الله المرحوم

العلامة السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

رضوان الله عليه

- ٦ بين الإسلام والحضارة الهاديّة
- ١٠ الرجل بين زوجته ووالديه!
- ١٤ وجوب احترام الأبوين ولو كانا مشركين
- ٢٢ قصّة مَنْ كُشِفَ له حجاب الملكوت لبرّه بأّمّه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم: (١)

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُومًا، وَ

قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ

عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا

تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ

(١) هذه المقدمة هي التي يتبدئ بها المرحوم العلامة بگوته عادة.

الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا
فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢﴾

يشير [تعالى] في هذه الآيات إلى سبيل من سبل السلام،
ألا وهو احترام الأبوين و إكرامهما في سنّ الكهولة، و فوق
ذلك في سنّ الهرم حين يبدأ التهاك و الضعف بالهجوم
على بدنيهما إثر الشيخوخة و الهيمنة التدريجيّة لجيوش
الموت، و ربّما سيصدر منها في تلك السنّ - بلا قصد -
الكلام الخشن و العبارات غير الجميلة المسيّبة عن الإرهاق
و عدم تحمّل المشاكل و المزعجات من الأمور.

و يصدر القرآن هنا تعاليمه فيأمر الولد أن يبرّ والده
و يعاملها باحترام و أدب، و يبذل المساعي الجميلة في تأمين

(٢) الآيات ٢٢ إلى ٢٥، من السورة ١٧: الإسراء.

حوائجها، وبخفض جناح الذلّ والخضوع، بلا إكراه أو إجبار، ولا لحسابات مصلحة أو من باب الاحتياط، بل لمحض الصدق والإخلاص وعين الرحمة والرأفة، بل إنّ عليه - مضافاً إلى تحمّل المشاق من أجلهما - أن يدعو لهما بطلب الرحمة والمغفرة من الله تعالى.

ونلاحظ أنّ الإسلام قد اعتبر برّهما الذي يقترن بمجاهدة النفس ورياضتها، من أهمّ تعاليمه التي جعلها جزءاً من الوظائف العمليّة للإنسان.

إنّ الإنسان يتحمّل المشاق منها فيطهر من هوى النفس، ويصبر على ما يكره منها فيجزي الأجر الجزيل، ويكتسب سعة الروح والصدر، ويرضي والديه فيدعوان له بالخير؛ وسيصبح هذا المجتمع العائليّ الصغير من الأبوين

والأولاد مركزاً للمحبة والإخلاص، فالابن يبرّ والديه
ويسعى في خدمتها، وهما المحبان اللذان يلهجان له
بالدعاء، حتى تزدوى حياتهما وتنطوي شيئاً فشيئاً فيودعان
الثرى بإعزاز واحترام ودعاء لهما بالغفران، ثمّ تمضي الحياة
فيصبح الأبناء أنفسهم آباءً وأمّهات، ثمّ يضعفون ويهرمون
فيعاملهم أبناؤهم بما عاملوا به والديهم.

بکاشتند و بخوردیم و چو نیک بنگری همه
کاریم و خورند برزیگران یکدگریم

يقول: «زرعوا فأكلنا و نزرع فيأكلون، فلو أمعنت
النظر فكلّ منا لبعضه مزارع»

لكنّ الثقافة الضالّة، والحضارة الغربيّة والشرقيّة، لا تقيم وزناً للإنسان، ولا تعترف له بشخصيّة ولا أصالة، بل هو في نظرها ليس إلّا وسيلةً من وسائل العمل، وأداةً للحصول على المقاصد الماديّة والموارد الاقتصاديّة. (٣)

(٣) يقول أحمد أمين المصريّ في كتابه «يوم الإسلام» ص ١٧٠ إلى ١٧٣: نعم إنّ هناك فروقاً اجتماعيّة كبيرة بين العالم الأوروپيّ والعالم الإسلاميّ، فالعالم الأوروپيّ يبني حياته على العلم و النتائج العلميّة والاستقلال والحرّيّة والابتكار ونحو ذلك، والعالم الإسلاميّ ينظّم حياته على أساس الاتكال والحمول والاعتقاد الذي ساد في القضاء والقدر ويطريه جدّاً سماع قصص تروي عن غنيّ افتقر أو فقير اغتنى. و شيخ استولى ونحو ذلك. ونحن لا نريد أن يحذو المسلمون حذو الأوروپيّين في كلّ شيء بل نريد أن يحذو حذو الأوروپيّين في العلوم والصناعات بحذافيرها من غير قيد ولا شرط ولكن يحتفظون بروحانيّتهم ونظرتهم إلى العالم نظرة غير النظرة الأوروپيّة. فالأوروپيّ ينظر إلى الطبيعة كأنّها عدوّ يكافحه ليفشي سرّه، ولكنّ النظرة الإسلاميّة تنظر للطبيعة على أنّها صديق وأنها من نتاج الربّ الذي أنتجه. والأوروپيّون يضعون الله كما توضع الصورة الجميلة على الرفّ، لا دخل لها فيما يحدث حولها، والمسلمون يرون الله في كلّ شيء، في الأمور الدنيويّة و الدنيويّة معاً، فإذا باعوا أو اشتروا أو أجزوا أو رهنوا راقبوا الله، حتى في أصغر الأعمال كالاستيّاك والاعتسال، و عندهم أنّ النية الصادقة أقوم من العمل نفسه وفي حديث رسولهم صلّى الله عليه [و آله] وسلّم: إنّما الأعمال بالنيّات وإنّما لكلّ امرئ ما نوى. وفرق بين رجلين يعملان عملاً واحداً، أحدهما نوى الخير فيما يعمل، والآخر لم ينو شيئاً أو نوى الشرّ. فهم يسيرون في حياتهم الدنيويّة متأثرين بالدين وليس الدين مقصوراً على العبادات. وهذا ما ينقص الغرب، فإنّ وجب على

المسلمين أن يقلّدوا الغربيين في العلم والصناعات تقليداً تاماً ويسايروهم ويجروا معهم وحب أن يحتفظوا بنظرهم الدينيّة إلى الحياة وهي النظرة التي يتميّزون بها عن الغربيين. ولكنّ موضع السوء أنّ كثيراً من المسلمين و خاصة المتتورين منهم يريدون أن يقلّدوهم تقليداً تاماً في كلّ شيء حتى في نظرهم إلى الطبيعة ونظرهم إلى الحياة. و يدعوهم إلى ذلك خطأ كبير وقعوا فيه وهو ما عندهم من مركب النقص، إذ ظلّوا أنّ الغربيين متى فاقوهم في العلم وحب أن يقلّدوهم في كلّ شيء، وفتحهم أنّ المهارة في ناحية لا تقتضي المهارة في النواحي الأخرى وأنّ روحانيتهم ونظرهم إلى العالم خير من نظرة الأوروبيين، ولا يمكن أن يفوقوا من غفلتهم إلّا إذا اعتقدوا أنّ روحانيتهم خير للعالم كلّهم وأنهم إذا كانوا انحطوا في العلم والصناعة فقد سماوا بالفطرة الروحانيّة، وأنهم إذا وحب أن يقلّدوا في العلم وحب أن يقلّدوهم الأوروبيون في النظرة الروحانيّة وليس الأوروبيون متسامين في كلّ شيء. ومن المؤسف أنّهم حدوا حدو الأوروبيين في تعليمهم و نمط تربيتهم، فأسسوا المدارس المدنيّة على النمط الأوروبي و لم يشدّ عن ذلك إلّا الأزهر، وقد قال أبو العلاء المعريّ:

اثان أهل الأرض ذو عقل بلا دين و آخر دين لا عقل له

فالمدارس المدنيّة محرومة من التربية الدينيّة والأديبيّة. نعم يسوغ لنا أن نقلدهم تمام التقليد في العلوم ومعامل التجارب ونحو ذلك فقط، ولكن لا نقلدهم في الناحية الأديبيّة، فهم يدرسون التاريخ على أنّ أوروبا سيّده العالم، و على أنّ رَجُلها الأبيض هو المسؤول عن الأسود والأصفر، وأنّ الله خلق العالم قسمين: قسماً أوروبياً سامياً و قسماً غير أوروبّيّ منحطاً، ومن أجل ذلك يؤرّخون أوروبا كأنّها المركز وما حولها نقط على المحيط، وإذا جاؤوا للتاريخ الإسلاميّ اقتضبوه أو حرّفوه، فوجب على المسلمين أن يفرّقوا بين ما هو علميّ يُقلّد وما هو أدبيّ لا يُقلّد. وهذه المدارس لا تأبه بالدين إلّا شكلياً ولذلك يجهلون أصول الدين كلّ الجهل ويتبعون الأوروبيّ في منهجهم كلّ الاتباع، ورأس هذه الحركة الجامعة المصريّة التي تقود المدارس الثانويّة والابتدائيّة، فهم لا يسألون في كلّ أمر عرض ماذا رأى الإسلام؟ ولكن يسألون ماذا يرى الأوروبيون؟ كأنّ الله اصطفى الأوروبيين وحدهم و جعل غيرهم ذليلاً لهم.

وإن كان في كلّ من الشرق و الغرب عيوب ففيه أيضاً محامد؛ فالغرب أصحّ رأساً و أعظم علماً و أصبر على الشدائد و على البحث العلميّ، و له مهارته في الذكاء و له اليد المفكّرة، والشرق له سماحة

فالأبوان يمتلكان المقام والمنزلة في المجتمع مادام
في إمكانهما العمل ودرّ المنافع الماديّة، لكنّها حين يعجزان
عن العمل أو قضاء أعمالهما الخاصّة بنفسيهما - للمرض أو
لضعف الشيخوخة وفتورها - يصبحان في نظر المجتمع
والقانون، وحتى في عرف الناس، عاليتين لا قيمة لهما ولا
أهميّة ولا اعتبار، فيعمد أولادهما إلى التعاقد مع
المستشفيات الخاصّة فيبيعون - مقدّماً - أعينهما وكليتيهما،
فيعمد إليها عند نزعها واحتضارهما، فتتزع العيون من
أحداقها بالسكين، وتُبقر البطون فيستأصل القلب والكلّى،
و يمثّل بالبدن ويمزّق تمزيقاً، ثمّ يتركانها للدولة لتتولّى
مسألة دفنها.

صدر وله روحانيّة يعترف بها حتى الأقدمون؛ فقد قال فدلبند عند كلامه على الإسكندريّة إنّّه قد التقت
فيها مادّيّة الغرب بروحانيّة الشرق.

لقد مثل الآباء والأمّهات دور الأبقار الحلوب، تُحلب ما درّت ضروعها، حتى إذا ما كبرت وهرمت وانعدمت عوائدها، عدت عضواً زائداً شاذاً في المجتمع، فيُنقل الآباء والأمّهات - طوعاً أو كرهاً - بعيداً عن المجتمع إلى محلّ خاصّ بين المدينة والمقابر، أشبه ما يكون بالسجن الواسع أو المستشفى الأبدية، يدعونه فندق الكبار أو دار استراحة العجزة والمسنين.

لا أنس لهم هناك ولا أنيس، ولا صديق ولا دار ولا ديار، بل هي الوحدة، والوحدة المرّة القاتلة، والفراغ المميت والوحشة الرهيبة حتّى الموت.

إنّهما الأبوان اللذان قضيا عمرهما وضيّعاه من أجل هذا الولد، وأنفقا من أجله وجودهما ومالهها وحياتها؛ لكنّها

حين تخطّاهما الزمن فكبرا وعجزا عن تأمين متطلّباتهما
الخاصّة أصبحتا عبئاً متعباً ثقيلاً لابن!

الرجل بين زوجته ووالديه!

والأسوأ من ذلك أنّ زوجة ابنهما لم تعد لتسمح ببقائهما
في المنزل، بل تعتبرهما جرائم ضارّة، لربّما أمرت فخصّص
لها غرفة الخدم، أو أشارت فألقي بهما إلى الخارج، فينقلان
إلى دار العجزة والمسنين.

لقد صار الابن عبداً طيِّعاً لزوجته، لقد انغمر في
الشهوات، وذاب في عشق الجمال الظاهريّ فقدّم إرادتها في
أمور الحياة، حتى صار بإشارة بسيطة منها تكفيه ليسعى
بمنتهى الجِدِّ لتنفيذها مهما كلف الثمن أو كانت
التضحيات.

عشق هائي كز پي رنگي بود
عشق نبود عاقبت
ننگی بود^(٤)

يقول: «علاقات الحبّ السطحيّة القائمة على الألوان
والمظاهر هي ليست عشقًا، وستكون عاراً في نهايتها».

لقد تخلّى الابن لزوجته عن مسؤوليّة إدارة أمور
المنزل، بل ومسؤوليّة تسيير أموره الشخصيّة، وكذا ما
يتعلّق منها بخارج المنزل، فصارت فعّالة لما تشاء، حاکمة
بما تريد عليه.

إنّ الزعامة في الأمور والتفويض وحرّية الاختيار حين
تصبح في يد النساء، فمن الواضح أين سيسقن الرجال، وفي
أيّ طريق سيوردنهم، ومن أين سترد الضربة القاصمة

(٤) «مشوي» للملّا الروميّ، ج ١، ص ٦، س ٢٠، طبعة علاء الدوله.

للمجتمع السليم و للسلام. و هنا تشرق هذه الآية
المباركة من أفق الغيب فتتهك الستر الخفي هاتفةً:
﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى
بَعْضٍ وَ بِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ
حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (٥)

و لا ينقضي العجب من أن الكلام كثيراً ما يدور هذه
الأيام حول آية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، فيعتبرها
مدعو معرفة الإسلام قانوناً أصيلاً يعدّ من مفاخر القرآن،
بيد أنهم لا يأتون بذكر لآية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى
النِّسَاءِ﴾، أو لجملة: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾، أي لمسألة
لزوم طاعة النساء للأزواج، كأنهم جزأوا الإسلام فقبلوا

(٥) النصف الأول من الآية ٣٤، من السورة ٤: النساء.

منه بعضاً ورفضوا بعضاً، مع اعترافهم اللفظي الشكليّ
بجميع القرآن وإقرارهم الكليّ بجميع أحكامه.

إنّ الفتاة التي لا تقبل قيمومة الرجل على المرأة،
ووجوب طاعته والتسليم له، وكان في نيتها أن تُخضع
الزوج لسيطرتها بعد الزواج، فتأمره و تنهاه، وأن تتسلّط
على الأمور بالحيلة والمكر بمختلف الوسائل؛ وبشكلٍ عامّ
فلو كانت تعتقد أنّ المرأة ينبغي أن تتسلّط على الرجل أو
تتدخل في أموره، فهي في الحقيقة ترفض هذه الآية ولا
تقبلها، حتى لو احترمت القرآن وبجلّته والتزمت بفتحه
أمام أعينها في مجلس العقد، وسيكون عقد زواجها في هذه
الحالة باطلاً، لأنّه لم يجرِ وفق شريعة رسول الله ووفق كتاب
الله. ولله الحمد وله الشكر فقد كتبنا «رسالة بديعة: الرّجالُ

قَوَّامُونَ»^(٦) وطُبعت ترجمتها أيضاً، وانتشرت، وحرريّ
بالجميع - رجالاً و نساء- أن يقرأوا هذه الرسالة ليتعرّفوا
على روح الإسلام وسموّ نظرتة بشأن حكمة المجتمع،
والواجبات المهمّة للرجال والنساء، من أجل تشكيل
مجتمع صالح يقوم على أساس التعاليم القرآنيّة لا الأوهام
الشخصيّة أو الأفكار الجاهليّة.

وجوب احترام الأبوين ولو كانا مشركين

لقد رفع الإسلام مسألة وجوب احترام الوالدين
وإجلالهما للحدّ الذي عدّ القرآن الكريم احترامهما
ومصاحبتهما بالمعروف في الأمور الدنيويّة أمراً واجباً ولو
كان الأبوان مشركين، مع أنّه حرّم متابعتها في الشرك أو

(٦) كتاب «رسالة بديعة- الرجال قوامون علي النساء» كُتب باللغة العربيّة و ترجم إلى اللغة الفارسيّة.

إطاعتها في المسائل المخالفة للدين، وفي تحليل الحرام أو
تحريم الحلال، وأغلق طريق متابعتها بشكل كامل في هذا
المجال.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ
وَفَصَّالَةٌ فِي عَمَلِنَا أَنْ اشْكُرْ لِي وَ لِي وَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ، وَإِنْ
جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَ
صَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٧)

(٧) الآيتان ١٤ و ١٥، من السورة ٣١: لقمان.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ

بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَاَنْبِئِكُمْ بِمَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨)

لقد كان الفتيان اليهود والنصارى يقدمون إلى المدينة فيسلمون، ثم يعودون إلى ديارهم فيصبح سلوكهم ومعاملتهم مع آبائهم وأمهاتهم الخارجين عن دينهم أفضل وأجمل، مما كان يثير عجب آبائهم وأمهاتهم ودهشتهم، فيتساءلون: كنا نظنكم - وقد تبعتم دين محمد - تتركونا و شأننا، لكننا نرى محبتكم وعطفكم قد زادا، وسعيكم في حوائجنا وبرّكم لنا ووقفكم أنفسكم على خدمتنا صار أكثر!!

(٨) الآية ٨، من السورة ٢٩: العنكبوت.

فيجيونهم: إن هذه المعاملة من أوامر وتعاليم الدين الإسلامي؛ فكان الأبوان يأتیان المدينة فيُسلمان، وتسلم معهم قبائلهم و طوائفهم. (٩)

روى في «أصول الكافي» بسنده المتّصل عن أبي ولّاد الحنّاط، قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»، مَا هَذَا الْإِحْسَانُ؟

(٩) روى الغزاليّ في «إحياء العلوم» ج ٢، ص ١٩٥، عن أبي سعيد الخدريّ: هاجر رجل إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله] و سَلَّمَ من اليمن و أراد الجهاد، فقال عليه السلام: هل باليمن أبواك؟ قال: نعم. قال: هل أذنا لك؟ قال: لا. فقال عليه السلام: فارجع إلى أبويك فاستأذنهما، فإن فعلا فجاهد وإلا فبرهما ما استطعت فإنّ ذلك خير ما تلقى الله به بعد التوحيد. وجاء آخر إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله] وسَلَّمَ ليستشيره في الغزو، فقال: أَلَكِ والدة؟ قال: نعم. قال: فالزمها، فإنّ الجنة عند رجليها. وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة، وقال: ما جئتك حتى أبكيك والديّ. فقال: ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما.

فَقَالَ: الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ صُحْبَتَهُمَا، وَأَنْ لَا تُكَلِّفَهُمَا أَنْ
يَسْأَلَكَ شَيْئًا مِمَّا يَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَا مُسْتَعِينَيْنِ، أَلَيْسَ
يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ»؟

ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَ أَمَّا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَ
جَلَّ: «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا
أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا»، قَالَ: إِنْ أَضْجَرَكَ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ، وَلَا
تَنْهَرُهُمَا إِنْ ضَرَبَاكَ وَتَدَفَعَهُمَا عَنْكَ.

قَالَ: «وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا» قَالَ: إِنْ ضَرَبَاكَ فَقُلْ لَهُمَا:
غَفَرَ اللَّهُ لَكُمَا. فَذَلِكَ مِنْكَ قَوْلٌ كَرِيمٌ، قَالَ: «وَاحْفِضْ لَهُمَا
جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ» قَالَ: لَا تَمَلَأْ عَيْنَيْكَ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِمَا
إِلَّا بِرَحْمَةٍ وَرِقَّةٍ، وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فَوْقَ أَصْوَاتِهِمَا، وَلَا يَدَّكَ
فَوْقَ أَيْدِيهِمَا، وَلَا تَقْدِّمْ قُدَّامَهُمَا.

وكذلك فقد أورد في «أصول الكافي» بسنده المتصل
عن الصادق عليه السلام أنه قال: لَوْ عَلِمَ اللَّهُ شَيْئًا أَذْنِي مِنْ
أَفٍّ لَنَهَى عَنْهُ، وَهُوَ مِنْ أَذْنِي الْعُقُوقِ، وَمِنْ الْعُقُوقِ أَنْ يَنْظُرَ
الرَّجُلُ إِلَى وَالِدَيْهِ فَيُحِدَّ النَّظَرَ إِلَيْهِمَا. (١٠)

انظر إلى هذه التعاليم والتربية العالية، وإلى هذا
الأسلوب والمنهج الملكوتي الذي يهدي به القرآن من
اتبّعه إلى سبل السلام، وقارنها بتعاليم الأمم الكافرة
وأسلوب معاملة بعض الشباب المغرور الذي سافر إلى
أوروبا وأمريكا فأضله بريق المدينة الزائف، فصعّر خده،
وتقدّم على أبيه في المجالس والمحافل، لا يبالي؛ وقد
شاهدت بنفسي دكتوراً أخصائياً سبق أباه في الدخول لأحد

(١٠) «تفسير البرهان» ج ١، ص ٦٠١، تفسير سورة الإسراء، الطبعة الحجرية، و«تفسير نور
الثقلين» ج ٣، ص ١٤٨ و ١٤٩.

المجالس ووالده يتبعه ويسير خلفه، ونُقل أعجب من هذا عن دكتورٍ شابٍّ عاد من بلاد الكفر فجاءه رفقاؤه وأصحابه القدامى لزيارته، وكان أبوه العجوز واقفاً يستقبل القادمين ويقوم بخدمتهم، فالتفت هذا الدكتور لشدة غروره وعجرفته قائلاً لضيوفه: هذا الرجل مستخدم جئنا به للخدمة في البيت.

﴿أَفْ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (١١)

حقاً! إنَّ الإنسان إذا قال أفٍّ لأهواء وأفكار هؤلاء المستكبرين الذين حازوا على مقامٍ ومركزٍ حديثاً، ولو قال أفٌّ ثمَّ بصق عليهم وعلى فكرهم وأسلوبهم ونهجهم لما تجانف عن الحقِّ، ولكان في ذلك محققاً مصيباً. أفهذه الأعمال

(١١) الآية ٦٧، من السورة ٢١: الأنبياء: ﴿أَفْ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

تصدر من أمّةٍ قال نبيّها: الجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الامَّهَاتِ؟! (١٢)

(١٣)

كان ما سبق بحثاً علمياً و تفسيرياً للآية المبحوثة، و من جانب آخر فإنّ البحث الوجدانيّ و الشهوديّ عن تأثير دعاء الوالدين في حقّ ولدتهما، وما له من القدرة على رفعه

(١٢) «الجامع الصغير» للسيوطيّ ص ١٤٥.

(١٣) ينقل سماحة السيد محمد محسن الطهراني في كتابه أسرار الملكوت (ج ٢ ص ٢٨٢) عن والده المرحوم العلامة أنه كان يقول: إذا كانت العلاقات فيما بين عائلة يهودية قائمة على أساس العشق والمحبة والسرور والبهجة والود والاستئناس، فتلك العائلة أقرب إلى أمير المؤمنين عليه السلام من عائلة تدعي التشيع ومتابعة أمير المؤمنين عليه السلام، ويكون الطاغية عليها حالة النزاع والشجار والكدورة ويقول عنه في كتاب الشمس المنيرة ص ١٥١: وكان يؤكّد في تمام كلامه على خدمة الناس ومداراتهم، والإيثار والإعراض عن الدنيا وشرك الشيطان، ونشر المحبة والصفاء بين الأصدقاء والرفقاء والأحلاء الروحانيين، والمحافظة على المودّة والمحبة داخل الأسرة. وكان يقول:

إنّ الأسرة اليهوديّة التي تعيش بمحبّة وأنس وودّ، أقرب إلى الله من عائلة تُعتبر من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام تعيش بصراع دائم وكدورة، كما أنّ الممرّض المسيحي في المستشفى الذي يخدم المرضى بأحسن وجه طلباً لرضا الله، هو واقعاً من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، بينما ذاك الممرّض الشيعي الذي يتعامل مع المرضى بعنف وقسوة ويكسر قلوبهم، فهو بعيدٌ عن ممشي أمير المؤمنين عليه السلام وسنته.

في معارج الكمال و مدارجه، والشواهد والتجارب
المشهودة في ذلك هي من الكثرة بحيث لا يسعها هذا
الكتاب.

قصة من كُشِفَ له حجاب الملوك لبرّه بأّمه

وأنقل هنا فقط ملاقةً لي مع شخصٍ ارتقى إلى مقام
عالٍ إثر خدمته لأّمه، وحدث له كشف الحُجب
الملكوّية:

حدث أن ذهبت في طهران يوماً إلى المكتبة الإسلاميّة
الواقعة في شارع (بوذرجمهري)، وكان الحاجّ السيّد محمّد
الكتابجيّ، وهو أحد المشاركين في هذه المؤسّسة،
مشغولاً في مخزن الشركة الواقع في انتهاء شارع (بامنار)
قرب شارع (بوذرجمهري) الذي تقع فيه المكتبة، وكان

هذا السيّد المذكور من بين الإخوة المتصدّين لمسؤوليّة إدارة مخزن الكتب وإرسال طلبات الكتب إلى المدن الأخرى، وبيع الكتب بالجملة. و قد زرته لرؤيته في ذلك المخزن لما بيننا من رابطة صداقة قديمة، و كنت أذهب إليه غالباً لشراء ما أحتاج من كتب.

كان الوقت صباحاً، و لم يكن لأذان الظهر بعد سوى أربع ساعات، و كان هناك رجل جاء لشراء بعض الكتب، و قد بسط حزامه الجلديّ على الأرض و صفّ عليه بعض الكتب التي ابتاعها كالقرآن و «مفاتيح الجنان» و «كليّة و دمنة» و بعض القصص و الرسائل العمليّة، منتظراً ليجمع باقي الكتب التي تلزمه. و أخيراً و بعد إتمام هذا العمل حزم كتبه - و كانت بحدود الخمسين كتاباً - في حزامه

الجلديّ و تهيّاً للخروج، ثمّ قال فجأة: الله حبيبي، الله
طبيبي، مُعيني معيني، روعي روعي.

نظرتُ إليه فكان وجهه قانياً جدّاً و قد لمعت حَبّات
من العرق على جبهته، و كان غارقاً في الوجد و السرور بلا
حدّ.

قلتُ: أيّها العزيز! أيّها الدرويش العزيز! ليس من
طبائع الأدب أن تنفرد بالمائدة فلا تشارك أحداً!

فبدأ بالدوران حول نفسه، و دار دورة واحدة، ثمّ ترنّم
بصوت عالٍ فيه حرقه بهذه الأبيات للشاعر بابا طاهر
العريان، و كان صوته فصيحاً حزيناً:

اگر دلِ دلبر، دلبرِ کدام است و گر دلبرِ دل، دل را چه نام

دلي دیرم خریدار محبت

لباسي بافتم بر قامتِ دل

غم عشقت بیابون پرورم

ک

بمو گفتم صبوري کن

ص

به صحرا بنگرم صحرا ته

وینم

بهر جا بنگرم کوه و در دشت

اس

کز او گرم است بازار محبت

ز پود محنت و تار محبت

هوای بخت بی بال و پرم کرد

صبوري طرفه خاکی بر سرم

ک

به دریا بنگرم دریا ته وینم

نشان از قامت رعنا ته وینم

يقول: «إذا صار القلب هو الحبيب فمن سيكون الحبيب؟ و

إن صار الحبيب هو القلب فماذا سنسمي القلب؟!

لقد اتَّحد القلب و الحبيب كلاهما، فأصبحتُ لا أدري مَنْ
القلب و من الحبيب.

إنَّ قلبي لشغوف بشراء المحبَّة و العشق، وقد صار سوقُ
العشق بسببه رائجاً.

ولقد حكْتُ لقامة الحبيب ثوباً، فكانت لحمته المحنة و
سُداه المحبَّة.

أدَّى غمَّ عشقك أن سكنت الصحراء فصرت حليفها، و
رمانى هوى الحظِّ بلا ريشٍ و لا جناح.

قلت لي: كن صبوراً كن صبوراً، فصبرت حتى فقد الصبر
صبره مني و رمانى بقبضة ترابٍ على رأسي.

أنظر الصحراء فأراك الصحراء، وأتطلع إلى البحر فأرى
بحرك.

حيثما نظرتُ إلى جبلٍ أو صحراء، رأيتُ آيةً من قامتك
الرشيدة).

ثم سكت في هذه الحال، وبكى بشدة، ثم أشرق وجهه
بالسرور والبهجة فضحك.

قلتُ: أحسنت أحسنت، أنا حقير فقير عاجز، أنتظر دعاءك
لي، فبدأ يقرأ هذه الأبيات:

موازٍ "قالوا بلى" تشويش دیرم	گنه از برگ و بارون بیش دیرم
اگر "لا تَقْنَطُوا" دستم نگیره	موازٍ "يا وَيْلَتَا" أندیش دیرم
بورَه سوتَه دلان تاما بنالیم	ز دست یار بی پروا بنالیم
بشیم با بلبَلِ شیدا به گلشن	اگر بلبَلِ ناله ما بنالیم

بورَه سوتَه دلان گردِ هم آئیم سخن واهم کریم غم وانمائیم
ترازو آوریم غمها بسنجیم هر آن غمگین تریم است
سنگین تر آئیم

يقول: «أنا خائف من عالم الذرّ وأشعر بالقلق
والاضطراب ممّا قلت حين «قالوا بلى»، فقد فاقت ذنوبي
قطرات المطر وأوراق الشجر.

ولو لم تأخذ آية «لا تقنطوا» بيدي وتخرجني من قلقي،
فستبقى آية: «يا ويلتا» هي الذي تشغل فكري.

تعالوا ذوي القلوب المحترقة الوهّى نبكي ونتأوّه، من
حبيب لا يضرّه الصدّ والإعراض.

ولنجلس مع البلبل العاشق في الروضة، فإن تصبر على
عشق الورد فلم يبْح بأهاته، فنحن سنئنّ ونتأوّه من عشق
معبودنا.

تعالوا ذوي القلوب الحرّى المحترقة نجتمع معاً فنفضي-
إلى بعضٍ همومنا.

ولنزنّ غموماً فنقارن بعضها إلى بعض، فأينا أكثر غمّاً فهو
أثقل ميزاناً».

قال: طريقك سليم والحمد لله، دعني و شأني أيها
السيد، فأنا فقير عاجز، و لا تضع حملاً آخر على كاهلي. ثمّ

قال: جئتُ يوماً لأبتاع كتباً، و كان العلامة (دهخدا) ^(١٤) قد جاء أيضاً، فتحدّثنا لبعض الوقت ثم قلتُ له: من الإنصاف القول بأنك بذلت جهداً ضخماً و تحمّلت معاناة كبيرة، ولكن لا تظنّ أنّ الأمر قد انتهى بذلك، فأبيّ شيء كان العمر سيُثمر لو صُرف في طرق أخرى؛ يا للأسى؟! و أي شيء كان سيُنتج؟!

هاتِ ما عندك الآن لنرى، تعالَ لنر ما في يدك الآن!

ته که ناخوانده ای علم	ته که نابرده ای ره در خرابات
سماوات	به یارون کی رسی هیهات
ته که سود و زیان خود نزونی	هییهات

(١٤) العلامة القزويني علي أكبر دَخُو، مؤلّف المعجم اللغويّ المعروف بـ «لغت نامه دهخدا»....
[يوازي في حجمه وقيّمته العلميّة لسان العرب في اللغة العربيّة حيث يعدّ مرجعاً لغويّاً متميّزاً].

يقول: «يا مَنْ جهلتَ علمَ السماوات! يا مَنْ لم ينلَ مقامَ

العرفاء ولم يهتدَ طريقهم في الخرابات

يا مَنْ لم يفرِّق بين ما يضرُّه وما ينفعه، هيهات أن تلحق

بعشاق هذا الطريق هيهات!!».

فاهتز العلامة، ثم غرق في التفكير لبعض الوقت،

وامتقع وجهه قليلاً، ولم ينس بنت شفة.

أمّا أنت فأنا أعرفك، فأنت تصلّي في مسجد القائم، وقد

جئتُ إلى ذلك المسجد وسأتي فيما بعد فلا مكان معيّن لي،

في الليل لا يغمض لي جفن، أطوف مناطق (طهران بارس)

و(طهران الجديدة) و(طرشت)، أذهب هنا وهناك وأدور

على المقاهي، وقد كان منزلي السابق في بوّابة (شميران)،

لكنني منذ وفاة والدي لا أذهب هناك إلا نادراً.

قلتُ: لقد نلتَ عناياتَ من الله تعالى، أفكان هناك
حسب الظاهر سبب خاصّ - حسب اعتقادك - لهذه
العنايات التي وُهبَتَها؟

قال: نعم، كان لي والدة عجوز مريضة وعاجزة، ثمّ
أصبحتُ مُقعّدة منذ سنوات، وكنتُ أليّ خدمتها بنفسي -
وأؤمّن احتياجاتها وأعدّ غذاءها وأحضر - عندها ماءً
وضوئها، وخلاصة الأمر فقد كنتُ حاضراً عندها انْفِذَ
رغباتها بصبر وتحمل؛ وكانت حادّة المزاج وسيئة الخلق،
تشتمني أحياناً فأتحمل وأبتسم في وجهها بحنو.

وآثرتُ من أجلها العزوف عن الزواج مع أنّي قد
جاوزت الأربعين، إذ كنتُ سأعجز عن إبقاء زوجتي مع
أخلاق والدتي تلك، وحسب علمي أنّ اختياري الزواج

يعني أنّ حياتي ستستحيل جحيماً لا يُطاق، وأنني سأجبر
على ترك والدي، وكان هذا الأمر بالنسبة لعاطفتي
وضميري أمراً غير ممكن، لذا تحمّلت مسألة عدم زواجي
ولقنت نفسي الإقتناع بها.

وكان يومض في قلبي فجأة؛ إثر تحمّل المصاعب
والمشاكل التي تواجهني معها؛ إشعاع ونور كالبرق يضيء
للحظة فيملاً القلب بهجة، لكنّه كان سريعاً ما يخبو ويخمد.
حتّى جاء أحد أيّام الشتاء، وكان الجوّ بارداً، وقد
بسطت فراشي قريباً من والدي في غرفتها كي لا تبقى
وحدها ولا تحتاج لندائي بصوت عالٍ إن أرادت شيئاً،
وكنّت في تلك الليلة قد أعددتُ إناء الماء بجانبني كي
أناولها الماء حالما تطلبه مني.

وقد نادتني في الليل فطلبتُ ماءً، فنهضتُ من فوري
وسكبتُ الماء في إناء وقدمته لها وقلتُ: خذي يا أمّاه فدتك
روحي. لكنّها كانت مثقلة بالنعاس فلم تفتن إلى سرعة
عملي وظنّت أنّي تأخّرت في إحضار الماء، فشتمتني شتماً
غريباً وضربت بالإناء على رأسي، فأعدتُ ملء الإناء
وقلتُ: خذي يا أمّاه العزيزة واعفي عني فأنا أرجو
غفرانك.

ثمّ لم أفهم ما حدث فجأة، وباختصار: لقد تحقّق ما
كنتُ أصبو إليه، وتبدّلت تلك الومضات إلى عالم نورانيّ
يضيء كالشمس، لقد كلّمني حبيبي ومعيني وإلهي وطبيبي،
ولم يقطع نجواه عني، وقد دامت هذا الحال ولم تنقطع بعد
مرور سنوات عليها.

ثمَّ سحب حذاءه بسرعة وحمل كتبه على عاتقه وودَّع
 قائلًا: سأجيء عندكم إن شاء الله؛ و تحرك للخروج من
 باب المخزن ثم التفت إلينا في هذه الحال بوجهه وأنشد
 هذه الأبيات بذلك اللحن نفسه:

دعای پیر مغان ورد صبحگاه	منم که گوشه میخانه خانقاه
منست	منست
نواى من به سحرآه عذرخواه	گرم ترانه چنگ و صبح نیست
منست	چـه بـاك
گدای خاك در دوست پادشاه	ز پادشاه و گدا فارغم بحمد الله
منست	غرض ز مسجد و میخانه ام
جز این خیال ندارم خدا گواه	وصال شماسست
منست	از آن زمان که برین آستان نهادم
فراز مسند خورشید تکیه گاه	روی
منست	مگر به تیغ اجل خیمه برکنم

رمیدن از در دولت نه رسم و

راه منسـت

تو در طریق أدب باش و

گوگناه منست ^(۱۵)

ورنـه

گناه اگر چه نبود اختیار ما

حافظ

يقول:

وأنا الذي دعاء شيخ الطريقة وِردُ

صـبـاحـي

فآهات أسحاري فيها للحبیب

اعتـذاري

ومليكي هو الفقير الواقف على

أعتاب حبيبي

ليس لي غرض سواك والله

أنا الذي رُكنُ الحانِ صومعتي

ومجلس أنسي

وإن لم تكن لي قيثارة الصبح وشرابه

فلا أبالي

وسيان عندي أن أكون ملكاً أو

فقيراً

وغرضي من المسجد والحانة

(۱۵) الغزل للخواجة حافظ الشيرازي في ديوانه، ص ۱۸، طبعة بزمان.

حكايته على بعض الأصدقاء من سكنة بؤابة (شميران)
فقالوا إنهم يعرفونه، وإن والدته توفيت قبل سنوات، وإنهم
يعرفونه كذلك بتلك الأخلاق والحالات. (١٦)

أمّا الحاجّ السيّد محمّد الكتّابجيّ، فقال في إيضاح حاله
إنّه بائع جوال يشتري بعض الكتب منّا بقدر ما يمكنه بيعه،
ثمّ يضعها على رصيف الشارع فيبيع ما يحتاجه الناس منها،
وهو رجل أمين في معاملته، يأتينا يومياً بقائمة الكتب التي
يحتاجها فنعدّها له، ثمّ يأتي بثمنها عسراً بعد بيعها، وتتابه
أحياناً حالات تجاهل حتى لا يعرفه أحد، وقد شاهدنا منه
حالات عالية.

(١٦) أمّا الآن، وقد مرّ عليّ تأليف هذا الكتاب عدّة أعوام، التحق خلالها برحمة الله تعالى، وارتحل إلى
عالم البقاء، فيحدر التنويه باسمه، ويُعرف بالحاجّ مهديّ المخبون.

نعم، كان المراد من ذكر هذه القضية بيان النتائج
المعنوية لخدمة الأمّ التي حين تفتح قلبها فإن أبواب السماء
تُفتح معه؛ قلب الأمّ مستودع الحبّ الإلهيّ وخزينة السرّ-
الإلهيّ، إن أغلق أغلقت معه أبواب السماء، وإن فتح
فُتحت معه.

و قد رأينا الكثير من سلكوا طريق الله تعالى وأمضوا
مدّة بالتهجّد وقيام الليل وصيام النهار والرياضات
المشروعة، لكنّ معاملتهم مع أبويهم كانت سيئة فلم
يوفقوا ولم يقطفوا ثمرة جهودهم، أو يحصلوا على حاصل
أتعابهم، ولم يحصل لهم كشف باب أو يُفتح لهم بشيء بعد
مرور الأعوام المتبادية.

لكنّ أفراداً؛ كهذا الرجل؛ لم ينشغلوا كثيراً بالرياضات والنوافل وترك المكروهات، لكنهم إثر مراعاة الأمور المتعلقة بنفوس الناس؛ كترك تسبب الأذى لمن تحت يدهم و سلطتهم، وتحمل أذى الناس والصبر عليه، وتوقير ذوي الحقوق من الوالدين والكبار والأولياء وإكرامهم؛ قد نالوا مقامات عالية ودرجات سامية.

نعم، فمن البحث في هذه الآية الكريمة وبيان هذه القضية فقد اتّضحت كيفية هداية القرآن إلى سُبُل السلام، وكيف أعطيت البصيرة واليقين للبائع المتجولّ المعدّم الحامل لبضاعته المزجاة يومياً على عاتقه، الجارّ قدميه جرّاً فوق الأرض؛ بحيث يعجز عقلاء العالم عن إدراك أمره، فصار يضحك ساخراً من كلّ هذه التعيّنات والأمر الاعتبارية،

عابراً في هذا العالم بوعي وبصيرة ملكوتيّة، مترحماً على
الناس العميان عن إدراك الحقائق والمعنويّات، معتبراً أنّه
يتصدّر عالم الإمكان في مقام صار مسند الشمس العالي
متكأه. (١٧)

(١٧) انتخب هذا البحث من كتاب: نور ملكوت القرآن، ج ١، ص: ١٠٦. ١٢٣. تأليف آية الله
العلامة السيد محمد الحسين الطهراني. وتجدر الملاحظة إلى أنّ العناوين هي من فريق التحقيق، كما تمّت
مقابلة الترجمة مع الأصل الفارسيّ خصوصاً في الأبيات الشعريّة.